اجتهادات
تفكيرُ بدائى

دراسةُ أنماط التفكير موزعةُ بين عدة علوم اجتماعية وحقول معرفية. ويتفاوتُ الاهتمام فى كلٍ منها بنمط التفكير البدائى، الذى لم يأخذ حقه فى الدراسة، خاصةً ذلك الذى يُقصدُ به امتدادات الطريقة التى فكر بها البشر فى العصور القديمة، وتجلياتها فى العصر الحديث.

وتدلنا الدراساتُ الأكثر عمقًا فى هذا المجال على تباين معدلات انتشار التفكير البدائى الآن من منطقةٍ إلى أخرى. وتأتى منطقتنا فى مرتبةٍ متقدمةٍ لعوامل كثيرة أهمها ثلاثة. الأول مواريثُ المجتمع التقليدى وعاداته التى صمدت عبر الزمن، واختلط بعضُها بقراءاتٍ معيبة للأديان سواء بقصد أو بدونه. والثانى جمودُ فكرى كان سائدًا فى العالم، ولكنه طال فى منطقتنا أكثر من معظم المناطق الأخرى. والثالث ميراثُ استعمارى ترك أثرًا فى أنماط التفكير فى المجتمعات العربية يفوقُ ما ترتب على مثله فى كثيرٍ من المجتمعات الأخرى التى أُخضعت بدورها للاستعمار.

ومن أهم سمات نمط التفكير البدائى أنه يظهرُ بوضوحٍ أكثر فى مراحل الأزمات على نحو ما يحدثُ فى منطقتنا الآن. حيث يمكنُ ملاحظة تجلياته المتعددة التى نكتفى بأربعة منها.

الأول التفكير الجزئى أو المُجزأ الذى يؤدى إلى انغماسٍ فى جانبٍ أو جزء واحد من الموضوع، مما يؤدى إلى نظرةٍ اختزالية يُرى الأمر من خلالها وكأنه أبيض أو أسود، وخير أو شر، ونور أو ظلام، بلا مساحاتٍ رمادية تتوسطُ الضدين. والثانى التفكير الدائرى، الذى يبدو فيه المرءُ وكأنه يدورُ حول نفسه بحثًا عما هو واضح أمامه لأنه لا يريد أن يراه. ويؤدى هذا إلى اتخاذ المواقف بناء على تقييم الفاعل، وليس الفعل، فنؤيد فعلاً لأننا نحب فاعله، ونرفض فعلاً مشابهًا بسبب موقفنا ضد من فعله، رغم أن الفعل واحد.

والثالث التفكيرُ بالمؤامرة، حيث يبحثُ المرء دائمًا عن مؤامرةٍ وراء كل حدث، ويجعلها شماَّعة يُعلق عليها الأخطاء والخيبات التى يُعيدُ إنتاجها لأنه لا يعترفُ بها ويستخلص الدروس منها. والرابع التفكير الذى يُخلطُ فيه بين القوة والعنف، ومن ثم الانبهار بالقوة الخشنة وإهمال القوة الناعمة التى يرتقى بها البشر وتنهضُ .